

## مدينة تينمل الموحدية بين التحصين الطبيعي والمحدث

الأستاذ. مصطفى سالم

قسم التاريخ والآثار / جامعة باتنة

## The City of Tainmil The Unitarian Between the Natural Fortification and the Modern One

Prof. Mustafa Salim

Dept. of History and Archeology/ University of Batina

mostaphasalem1977@gmail.com

## Abstract

The emergence of the founder of the Unitarian project –Muhammad Bin Tumert- great role in the rise of Tainmil during the sixth century for Hijra/ twelfth century A.D. according to their name, it was a gathering of tribes. This name is mentioned in the historical references in association with the name of Almahdi. The fortification in this city is considered a military and architectural structure has direct connection to natural, human, economic and political aspects of the city.

## مقدمة:

كان لظهور مؤسس المشروع الموحدى - محمد بن تومرت<sup>(1)</sup> - دور كبير في بروز اسم تينمل<sup>(2)</sup> على مسرح الأحداث خلال القرن السادس هجري الثاني عشر ميلادي ورغم ماكان للمكان قبل قيام الموحديين من قدسية. تبعاً للدلالة الاسم بعبارة مجمع القبائل لعقد الوثيقة والعهود فيما بينها فإن ورود هذا الاسم في مصادر التاريخية بكثافة راجع لارتباطه باسم المهدي وسنحاول النظر إلى التحصين الموحدى في هذه المدينة باعتباره بنية عسكرية وعمرائية هامة له علاقة مباشرة بالمجال الطبيعي والبشري والاقتصادي وبالسلطة السياسية فهل كان اختيار موضع بناء مدينة تينمل خاضعاً لشروط الدفاع والتأمين؟ وهل ساعد ذلك على خلق مدينة عسكرية محصنة بمكونات أساسية لصد جميع أشكال الاختراق؟.

## أولاً /-التحصين الطبيعي:

يقول ابن خلدون فيها يجب مراعاته في أوضاع المدن: ((...المدن قرار تتخذها الامم عند حصول الغاية المطلوبة.... يجب ان يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع...))<sup>(3)</sup>. وإن مسألة تطور دفع المضار ارتبط بتطور الفكر العسكري الإنساني، فمع نشوب الحروب أصبحت الحاجة ضرورية لاستناد أسس تتضمن من المجموعة البشرية التي تتعرض للهجمات فعدت مسألة حتمية في تشييد منشآت عسكرية، تصمد أمام ضربات واختراقات المهاجمين وتوفير مصادر التموين في حالة الحصار، لذلك كان للعوامل الجغرافية والبشرية دوراً في الانتصار بالاعتماد على طبوغرافية الموقع التي تبقى أكثر العناصر ثباتاً.

إن اختيار ابن تومرت لمدينة تينمل الواقعة على الضفة اليسرى لوادي النفيس، ينم عن إستراتيجية الدفاع المحصن به من حماية طبيعية كبيرة واستعصاء الوصول إليها بسهولة من قبل المرابطين، حيث يصفها صاحب الحل الموشية بقوله: ((اذ لا يعلم (...)) أحصن من تينمل لا يدخلها الفارس الا من شرقها وهو الطريق إليها من مراكش بطريق اوسع مافيه ان يمشي عليه الفارس وحده، او ضيقة ان ينزل على فرسه خوفاً من سقوطه، والطريق مصنوعة من نفس الجبل، تحت راكبا الحافات وفيها مواضع مصنوعة من الخشب اذا ازيلت منها خشبة لم يمر عليها احد...))<sup>(4)</sup>. كما يصفها الادريسي المعاصر لابن تومرت بقوله: ((...انه كان يكفي وقوف اربعة رجال بشكل متواز ليجعلوا اي مرور منه متعذراً...))<sup>(5)</sup>.

وبسبب هذا الخصوصية يسميه باسيط وتيراس في مؤلفهما المشتركة بالطريق الشيطاني<sup>(6)</sup>. ونفهم من كل هذا ان الوصول الى تينمل على ظهر الخيول كان امراً متعذراً من جهة الشمال والجنوب، اما من جهتي الغرب والشرق فكان صعباً

جدا وذلك لان الفارس كان بمقدوره ان يمر من جهة الغرب -طريق مراكش - ببعض الممرات المتسعة نسبيا دون كبير صعوبة، لكن عند الوصول الى الممرات الضيقة كان يتوجب عليه النزول من صهر جواده تفاديا للسقوط، اما من جهة الشرق فإن الفارس اذا مر بحصانه كان يجد امامه انكسارا جبليا في الاعلى وهو في الاسفل بينهما مشيد بالقطع الخشبية، يكفي حذف قطعة واحدة منه لتصبح عملية المرور مستحيلة.

- ان الموقع الذي اختاره ابن تومرت عام (518هـ-1124م)، كان رهن الاطار السياسي. واستمراره في تطور حركته الدينية والسياسية الجديدة، حيث قضى ماتبقى من سنة 518 هـ وسنة 519 هـ -1124 م في تنظيم عاصمته الجديدة، وقاعدة عملياته العسكرية في وقت قصير حصر اهتمامه بمنطقة الاطلس الكبير، بحيث اصبح في مركز يمكنه من نشر عقيدته بين قبائل البربر من حوله.(7)

وبالتالي نجد ان ابن تومرت طبق شروط الموقع حول الإستراتيجية كما طبق شروط الموضوع حول فكرة التكتيك، فالموضع الحربي لتينمل يوفر الحد الاقصى من الامكانيات ومناورات الهجومية والدفاع، اي الحد الاقصى من الحماية والادنى من المخاطرة. وربما كان الموضوع الاكثر صعوبة بالنسبة للوظيفة الحربية منه في اي وظيفة اخرى، بل وربما كانت هذه الوظيفة هي الوحيدة بين الوظائف التي يعادل فيها موضع الموقع من حيث اهميته.

ان مدينة تينمل وافقت الشروط التي جاء بها كل من ابن زرع(8)، وابن خلدون(9) وابن القاضي(10) فيما بعد والتي لا بد منها لانشاء المدينة وهي مجموعة من العناصر المرتبطة بتحقيق شرط الدفاع، وتأمين الموقع واختيار المجال بناء على دفع المضار وجلب المنافع، وتسهيل المرافق وتأمين عناصر الحكم التي هي: الجند والمال والعمارة والرعية وعليه فإن ابن تومرت كان يستحضر في سياسته الدفاعية منطق الموقع باعتماده على استغلال المجال المرتفع، وخلق من تينمل مدينة عسكرية محصنة بمكونات اساسية لصد جميع اشكال الاختراق فقد كان المرابطون يتجنبون المباداة بالهجوم والسبب في ذلك يرجع الى طبيعة تكوين جيشهم الذي كان معظمه من الفرسان وكما كانت اودية جبال الاطلسي هي في معظمها، ضيقة وغير مستوية فإنها لم تكن ارضا صالحة لمناورات الفرسان، وكان من السهل سد الشعاب في الجبال، وحتى ولو بقيت مفتوحة، فان ذلك لايسمح للفرسان الا التقدم ببطئ مما يعرضهم للمزيد من المخاطر. (11)

وقد جرت محاولات لدخول الجبال الا انها انتهت بفشل ذريع، لقد راعى ابن تومرت في تأسيس مدينة تينمل الموقع الطبوغرافي الدفاعي الطبيعي ومن حسن الموضع، والنهر الجاري، والمحراث الطيب، والمحطب القريب، واستحداث التحصين من اسوار وابراج وابواب، حيث عبر الحكماء حين قالوا: ((...الملك بناء والجند اساسه فاذا قوى الاساس دام البناء، وان ضعف الاساس انهار البناء...)) (12).

### ثانيا /- التحصين المحدث:

بعد التحصين الطبيعي للمدينة تاتي اهمية التحصين المحدث وماله من دور في الدفاع عنها، ولذا اعتبر بناء الاسوار والابراج والابواب والقلاع من البناء الواجب، والمنشات الضرورية وقد اعتبره الاسلام من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض، وهي من مقاصد الشريعة الاسلامية في حين اعتبره الجغرافيون وكتاب المسالك من سمات المدينة بكل ما للكلمة من معنى، وقد اعتبر السور من الاشياء الضرورية في المدينة للتصدي هجمات العدو ومقاومة الحصار طويل الامد. وقد بدأت اسوار الموحدين الاولى بهذه المدينة -تينمل - وكانت مترسمة في بدايتها هذه خطو العمارة المرابطية، بحيث اكتفى ابن تومرت بتشييد سورين احدهما في جهة الشرق والاخر في جهة الغرب لم يتجاوز مساحة المجال الذي يفصل بينهما كيلومترا واحدا من الشرق الى الغرب، وما بين خمسمائة وستمائة متر من الشمال الى الجنوب(13).

وهذا لكون المدينة لم تكن في حاجة الى تحصينات اضافية، نظرا لتمتعها بحماية طبيعية كما اشرنا اليه سابقا.

و كان السور الممتد على المنطقة السفلى من النهر سميكاً جداً وبه مجموعة من الأبراج، وبهذا السور كان يوجد الباب الوحيد الذي يسمح بدخول المدينة.

أما السور الثاني الموجود بأعلى النهر - خلف المسجد - فكان أقل سمكاً على اعتبار أن الهجوم الذي يمكن أن يأتي من جهة السوس عبر فج - تيزي ن تاست - لن يكون بنفس الخطورة. (14)

وبعد أن سور ابن تومرت الأجزاء السفلى من جهتي الشرق والغرب، والتي يمكن منعهما دون غيرهما أن يمر الفارس كما مر ببناء السور إلى قمة الجبل حيث وضع برجاً يمكن من خلاله مراقبة كل ما يوجد خلف الأسوار (15)، وقد قضى ابن تومرت كل سنة 519هـ/1125-1126م، في تحصين تينمل، وتشييد السكن لكل اتباعه الذين جاءوا للاقامة بها.

نستطيع القول بأن أسوار الموحدية بتينمل قد نسجت على منوال الأساليب المرابطية، من حيث البناء بقطع الحجر الكبير غير المنتظمة أي غير المنجورة، تتخللها قطع مستوية من حين لآخر.

تتنظم بها سطوح الدماميك (16)، وقد تبقت آثار قليلة من سور تينمل الذي بناه ابن تومرت، ثم أعاد بناؤه عبد المؤمن بن علي سنة 540هـ (17)، وقد كشفت الدراسات عن هندسة السور المستقيمة التي تدعمها الأبراج على مسافات محددة، كما أبانت عن مواد بنائه والمتمثل في استعمال الحجر غير المنجور بارتفاع قائمة الرجل، تبدأ فوقه التابية إلى نهاية علو السور المطلوب. ومن هنا يمكن لمس التطور في وسائل ومواد البناء التي ابتكرها الموحدية، وهي تكشف عن نواياهم العمرانية ورغبتهم الملحة في سرعة الانجاز والاقتصاد في النفقات مع الصلابة التي تقاوم الزمن.

وقد عمد خليفة ابن تومرت عبد المؤمن بن علي على نهج سياسية دفاعية عبرت عن حسن استراتيجي، ووعي دفاعي فقد تم له في مابعد بناء حصن بجبل طارق وجعله قاعدة امامية للدفاع عن بلاد المغرب الاسلامي، وتشيد رباط تازة سنة 529هـ ليخصص كقلعة عسكرية مهمة ورباط تيط. (18)

وهكذا استمرت تلك الاتجاهات الجديدة طوال عصر الموحدية، وحلة التابية (19) محل الحجر والأبراج المضلعة محل الأبراج المستديرة.

أما الحديث عن أبراج المراقبة فنجد أن ابن تومرت، ولمزيد من الاحتياطيات قام بتشييد قلعة بقمة المنحدر الذي يراقب القرية أو المدينة، وكان كل الوادي أطلق عليه اسم تيضاف - برج المراقبة - حيث وضع عليها خفيرا مهمته الانذار ضد كل هجوم أيا كان مصدره، لكون البرج يشرف على أكبر مساحة ممكنة لاستطلاع العدو. (20)

ويعتبر من بين البناءات الدفاعية التي تزود بها أسوار المدن وقد يكون مرتبطاً بغيره من البناءات كالأبواب كما هو موجود في السور الممتد على المنطقة السفلى من النهر أو منعزلة عنها كما هو الشأن في قمة المنحدر الذي يراقب القرية.

تجدر الإشارة على أن الموحدية قد اتخذوا الأبراج الصغيرة الموزعة بصفة منتظمة داخل أسوار تينمل، والأبراج المحصنة من جانب الباب الوحيد - باب إيغلي - الكبير والتي يكون حجمها كبيراً نظراً لما تتوفر عليه من مساكن وممرات للجنود، وقد اتخذت هذه الأبراج شكلاً مستديراً. كما اعتمد في بنائها على الحجر بشكله الأول غير المنجور والثاني المنجور فيما بعد، ثم حلت الأبراج المضلعة محل الأبراج المستديرة وزادت العناية بإبراز الأبواب. (21)

وعلى الرغم من اتجاه الموحدية نحو بناء الأسوار بالتابية فإن أبوابهم حظيت دائماً باستعمال الحجارة المنجورة، منتظمة الشكل.

أما عن الأبواب في مدينة تينمل فيمكننا أن نصيغ أفكاراً حول شكلها الأول، حيث نجح احتفاظ سور المدينة الغربي بنموذج فريد، فتح فيه باب - إيغلي - والذي يعتبر من العناصر الأساسية، فهو الذي يوصل ما بين داخل المدينة وخارجها وقد استفاد المهندس المعماري الموحدية من تخطيط الأبواب المرابطية.

التي شيدت فوق تخطيط ذي انعطافات مرفقية لتحقيق الهدف الدفاعي الذي لم يكن كافيا في تصميم الابواب في فترات قبلها.

وانطلاقا من هذه الفكرة وتكرار مراحل المعوقات والعقبات في طريق المهاجمين، وبهذا ابتكروا طريقة التخطيط ذي المنعطفات المرفقية المزدوجة الذي نراه في ميولة مباني الموحدين الفخمة فيما بعد بمدينة رباط الفتح، وباب الاودية، وباب الرواح بالرباط كما ان هذه الابواب تعطي بعدا آخر لا يقتصر فقط على دورها الدفاعي، بل يتعداه ليصبح رمزا ودلالة على عظمة هذه الامبراطورية الناشئة.(22)

على الرغم من أن العمارة الموحدية في تينمل جاءت في مواضع محكمة المواضع في حلة جميلة تكاد مختلف المصادر والكتب التي تتطرق الى المعمار الموحدى الى الاتفاق على

شيئ واحد وهو أن الموحدين اقلوا الى حد كبير من الزخارف، حتى انحصرت في أشكال رئيسية حاسمة الخطوط بينة المعالم ' فمسجد تينمل الذي يعتبر أول معالمهم المعمارية، يشكل بداية نشأة الأسلوب الموحدى، فمحراب تينمل أحدث الروائع الزخرفية للمذهب الفني الاسلامي الجديد بالمغرب الاسلامي، بحيث أصبحت الزخارف تشكل شبكة واحدة تترك كثيرا من الفضائات الفارغة، كي تتفادى الزخرفة التومرتية، التراكم وتبدوا التفاصيل واضحة والخطوط متقنة، وهذا الاسلوب عم على جميع المنشآت المعمارية بتينمل محل الدراسة.

كما ان استخدام الالوان فقد تم تقاديه، وتعدده فالزخرفة تينمل نموذج الزخارف الموحدية الاولى، على سبيل المثال منقوشة على جص صلب ذي لون اصفر بلطف من حدة النور ويلون الضلال، غير ان الامر يختلف في الزخرفة الخارجية، اكثر الصناعات من الالوان يفضل استعمال الزليج، وكاننا بهم يرفضون التلاوين التي تستعمل فيها العناصر الطبيعية، ليجعلوا من الزليج المجال للالوان(23)

ويمكن اعتبار الفن الموحدى مرحلة ازدهار وتأويل وفي الآن نفسه بناء جديد للشخصية الزخرفية المعمارية المغربية التي عرفت كيف تعيد صهر المؤثرات المشرقية في نظام يعتمد الصرامة وتلطيف الفورة التزييقية والزخرفية.

#### الخاتمة:

من خلال ما سبق ذكره يتبين لنا ان الامر لا يتعلق بمدينة عادية بل بمركز إستراتيجي مهم، ينم عن استراتيجية الدفاع المحصن الطبيعي بالدرجة الاولى، فالمنطقة تختص بمنعتها الطبيعية، وبإستعصاء الوصول اليها بسهولة سواء من قبل المرابطين او المتمردين، وبالتالي هي مكان مناسباً لنشر دعوة ابن تومرت بين قبائل المصامدة، وإنجاح مشروعه السياسي فإختياره لهذا الموضع ليس عبثاً بل متأصلاً وخاضعاً لمقاييس معلومة، فهي تجمع بين التحصن والدفاع في آن واحد، وبالتالي تحقيق شرط تعذر التخطيطي، وتوفير شرط الأمان، وفتح المجال للمواجهة والتخندق، فكان ذلك إستجابة للمفهوم العام لاختيار الموقع الطبوغرافي في علاقته بالمجال الدفاعي العسكري.

كما حرص ابن تومرت على تحصين تينمل بشكل جيد، وجعلها بمنأى عن الفتن، فقد كانت السيطرة على هذه المدينة والتمكن من استخلاص بيعة اهلها، يعد مؤشرين مهمين له على تمكنه حكم البلاد والعباد، حيث لم يكن ذلك سهلاً على الدوام بل كان يأخذ سنين امتدت عاى فترات متقطعة من الحصارات والحروب، فكان الهاجس الاساسي الذي سيطر على تفكير ابن تومرت اذا هو العمل على تقوية النظام الدفاعي للمدينة، عن طريق استحداث سورين، وبرجا للمراقبة في قمة الجبل، واتخاذه للابراج المستديرة على طول السورين، اضافة لفتحه باب ايغلي الذي يعتبر النموذج الاول للابواب الموحدية.

## التهميش:

- 1- ولد ابن تومرت في جنوب المغرب الأقصى في المنحدرات الشمالية لسلسلة جبال الاطلس الداخلية، في مكان يسمى " ايجليزن- هرغة " سنة 471 هـ، حول ابن تومرت انظر: البيدق ابو بكر الصنهاجي، المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الاصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص 28.
- انظر كذلك: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في اختصار اخبار ملوك الاندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد زبيير ومحمد تاويت، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، الدار البيضاء، 1985، ص 120-135.
- 2- كتبت في المصادر باشكل مختلفة منها: "تينمل" و"تاملت" و"تينمال" و"تاملت" و"تمل" و"تين- ملل".  
لمزيد من الاطلاع انظر: مؤلف مجهول، الحل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، 1979، ص 112-114.
- 3- عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، المجلد الثاني، تحقيق أ.م.كاترمير، طبعة باريس، 1858، ص 209-210.
- 4- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 123
- 5- الادريسي محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق طبعة نابولي، 1955، ص 230-231
- 6- COLLECTION, SANCTUAIRES ET FORTERESSES ALMOHADS, BASSET ET TERRASSE-6  
PARIS 1932 PP.1-2, HESPERIS
- 7- حول عقيدة ابن تومرت، انظر: محمد بن تومرت "المهدي"، اعز ما يطلب، تقديم وتحقيق، عبد الغني ابو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، 1997، ص 33-40.
- 8- للمزيد من الاطلاع حول شروط اختيار المدينة انظر: ابن ابي زرع، الانيس المغرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط 1973، ص 53-54.
- 9- عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد الثاني ص 210-211.
- 10- ابن القاضي احمد، جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام لمدينة فاس، الجزء الاول، الرباط، ص 50-51.
- 11- امبروسيو هويثي ميرندا، التاريخ السياسي للامبروطيرية الموحدية، ترجمة، عبد الواحد اكميز، الطبعة الاولى، الدار البيضاء، 2004، ص 69-70.
- 12- الطرطوشي ابو بكر محمد، سراج الملوك، تحقيق، فتحي محمد ابو بكر، الجزء الثاني، الدار المصرية اللبنانية، 1994، ص 215.
- 13- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 112.
- 14- OP-CIT, BASSET ET TERRASSE, 37-38-14P
- 15- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 114.
- 16- عثمان عثمان اسماعيل، تاريخ العمارة الاسلامية والفنون التطبيقية، الجزء الثالث، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1993، ص 113
- انظر كذلك: صباح عبد اللطيف مشتت وعبد العزيز احمد الكباب، المداخل في العمارة الاسلامية، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو-1422هـ/2001 ص 21-27.

- 17- يتصل نسب عبد المؤمن بن علي بقبيلة كومية التي تعتبر احدى بطون بني فاتن، حيث ولد في قرية صغيرة تسمى ((تاجرا)) تقع بالقرب من مدينة (ندرومة) وللاطلاع اكثر حول شخصية حياة ونشأة ونشاط عبد المؤمن، انظر كتاب: الاستاذ الدكتور / صالح بن قرية، عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب، دار موفم للنشر، الجزائر 2011.
- 18- منير اقصبي، العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، افريقيا الشرق، المغرب، 2015 ص ص 25-26.
- 19- الطابية le pisé : جاءت الطابية لتعوض الحجر بالنسبة للتحصينات العسكرية ابتداء من عصر الموحدين، وقد استخدمت بشكل فعال جدا في الاسوار الموحدية التي مازالت توجد اجزاء منها مائة بفاس البالي. فاثبتت فعاليتها وجودتها منذئذ، واصبحت تنتشر اكثر فاكثر في كل مدن المغرب الاسلامي، وهي عبارة عن خليط من التراب والحصى والجير والماء، يحضر بنسب متفاوتة على حسب درجة صلاحية البناء المنشودة. للمزيد من الاطلاع اكثر انظر marçais(G).l'architecture musulmane d'occident 3D.arts et métiers.paris.1954p305.
- انظر كذلك: منير اقصبي، المرجع السابق، ص ص 203-204.
- ابن خلدون، المصدر السابق، الجزء الثاني ص ص 372-373.
- 20- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 140.
- 21- marçais(G).op.cit ;309
- 22- عثمان عثمان اسماعيل، المرجع السابق، ص 120.
- 23- basset et terrasse ;op.cit ;p40 .